المحاضرة رقم 07 : مملكة "كانم – برنو" الإسلامية :

يمتد إقليم السودان الأوسط حول بحيرة التشاد، ويصل في شرقه إلى حدود دارفور وفي غربه إلى النيجر ، ويمتد جنوبا إلى مناطق من إفريقيا الوسطى ومن نجيريا [1] ، وقد قامت في هذا الإقليم العديد من الكيانات السياسية على غرار منطقة السودان الغربي ومن أهمها دولة الكانم – بريو وممالك الهوسا.

أولا : دولة الكانم – بُرنو (479 – 1262هـ/1086–1846م)

قامت هذه الدولة في بلاد السودان الأوسط وكانت بحيرة التشاد هي مهدها، فيقول العمري عنها :"مستقل بينه وبين بلاد مالي مسافة بعيدة جدا ، قاعدة ملكه بلدة اسمها جيمي مبدأ مملكته من جهة مصر بلدة اسمها زلا ، و آخرها طولا بلدة يقال لها كاكا ، وبينهما نحو ثلاثة أشهر و عسكرهم يتلثمون..."؛[2] ممّا جعلها مركزا هاما لإلتقاء طرق القوافل المارة إلى جميع أنحاء القارة ، وأدّى هذا الأمر إلى ازدهار تجارتها وإلى قيام دولة بها منذ القرن 4هـ/9م [3] ، وينقسم تاريخ هذه الدولة إلى عصرين عصر سيادة الكانم ثمّ عصر سيادة برنو.

1 – عصر سيادة الكانم : تعتبر عناصر الكانمبو و هي خليط من القبائل الزنجية و البربرية أول من عمل على إنشاء دولة في إقليم كانم الذي يقع إلى الشرق والشمال الشرقي من بحيرة التشاد [4] ، وقيل إنّ الفضل في تأسيس هذه الدولة يعود إلى الملوك الأوائل من الزغاوة التي يعتقد أنّها ترجع في أصولها الأولى إلى فريق من بربر المغرب ولا سيما الملك داجو (Dago) الذي أُرِّخ لحكمه بحدود سنة 183هـ/ 800م وكان يدّعي أنّه من نسل القائد العربي سيف بن ذي يزن ، ويسود الإعتقاد أنّ قبائل الزغاوة كانت تجول الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى قبل أن تهاجر في القرن الثاني الهجري إلى بحيرة التشاد وتستقر هناك[5]

وقد ضمت هذه الدولة عددا كبيرا من القبائل و العناصر ، فهناك عناصر الصوصو وقبائل الكانمبو المشار إليها آنفا ، وتضم أيضا قبائل الكانوري التي تتكون من خليط من العرب والبربر والزنوج ، وهؤلاء الكانوري يُكوِّنون

---

[1] –محمد فاضل و إبراهيم سعيد ،مرجع سابق ، ص129

[2] –العمري مسالك الابصار ، مصدر سابق، ص45

[3] –محمد فاضل و إبراهيم سعيد، المرجع نفسه ، ص13

[4] بشار أكرم جميل ملاح، **تاريخ الاسلام في إفريقيا** ، ط1 ،دار الفكر ، عمان ،2014 ، ص164

[5] جلال يحي ، **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر** ،المكتب الجامعي الحديث الإسكندرية ،1999م،ص40.ينظر ايضا

أغلب سكان هذه المملكة ، يضاف إلى ذلك قبائل التُوبو من البربر ، وكذلك بربر الطوارق وقبائل العرب الذين كانو يعرفون باسم " الشوا " والذين قدموا إلى التشاد من وادي النيل [6]

ومن شمال القارة الإفريقية عبر الصحراء ، وقد أدّى إختلاط هؤلاء العرب بالوطنيين إلى ظهور عناصر جديدة مثل التنجور والبولالا و السالمان وغيرهم [7] .

قامت سلطة الكانم في القرن التاسع الميلادي على يد أسرة بربرية بيضاء هي الأسرة الماغومية السيفية التي ادّعت النسب العربي وقالت إنّها تنحدر من سيف بن ذي يزن واستطاعت هذه الأسرة السيطرة على حوض بحيرة التشاد واتخذت مدينة جيمي عاصمة لها ، وبدأ الإسلام يطرق أبواب هذه المملكة منذ قيامها وخاصة من الشمال والشرق على يد التجار والمهاجرين الذين توافدوا عليها في القرنيين 9م و 10م ، وتحكي المصادر عن قيام داعية إسلامي كبير يسمى الفقيه محمد بن ماني (القرن 11م) بنشر الإسلام في المنطقة ، وقد عاصر خمسة من ملوك الكانم الذين كانوا يعرفون باسم المايات (جمع ماي ومعناه الملك) ، أولهم الماي "بولو" الذي كان يحكم حوالي 410هـ/1020م وآخرهم الماي أوم بن عبد جليل (478-489هـ/1086-1097م) وهو الذي جعل الإسلام الدين الرسمي للدولة وعمل على نشره في بلاده ، ثمّ إتجه لأداء فريضة الحج ، ولكنّ المنية وافته قبل عودته من مصر فدفن بها ، ومنذ عهد هذا الحاكم لم يتولَّ حكم دولة الكانم أي ملك وثني [8]

وبلغت دولة الكانم درجة كبيرة من القوة والإتساع في عهد الماي دونمة بن أوم (489-546هـ/1097-1151م) الذي خلف والده في الحكم، وتابع خلفاؤه من بعده العمل على توسيع حدود هذه الدولة حتى صارت إمبراطورية كبيرة وخاصة في عهد الماي دونمة بن سالما بن بكر (618-657هـ/1221-1259م) والذي يُعرف أيضا باسم دونمة دباليمي نسبة إلى والدته دابال ، وقد أخضع هذا الماي القبائل المتمردة مثل البولالا الذين كانوا يعيشون في حوض بحيرة فترى الصغيرة الواقعة شرق بحيرة التشاد ، وأقام علاقات مع الحفصيين في تونس ، واتسعت

1-الموسوعة الإفريقية ، ج2 ، ص 191 .

2 - جلال يحي ، مرجع سابق ، ص 41 .

3- بشار أكرم جميل الملاح ، مرجع سابق، ص 164 .

الإمبراطورية في هذا العهد حتى وصلت شرقا إلى مشارف النيل وغربا إلى نهر النيجر وامتدت شمالا حتى وصلت قرب فزان الليبية[9]

ويعد الماي دونمة دباليمي واحد من الحكام الذين قضوا على جذور الوثنية في المنطقة من خلال قيامه بتحطيم الموني المقدس الذي كان يقدّسه الناس قبل إسلامهم معتقدين أنّه لا يجوز فتحه أو تحطيمه لأنّه يجلب النصر والحظ لحكام البلاد ورعيتهم ، وهذا التحطيم أثار غضب قبائل البولالا لما يمثله الموني من قدسية لديهم ، وظل الصراع قائما بين الطرفين ووصل مرحلة خطيرة في عهد زعيم تلك القبائل المدعوعبد الجليل سيوكوما (767-814هـ/1365-1411م) والذي عاصر تسعة من سلاطين الكانم والأمر الذي يميّز قبائل البولالاعن قبائل الصوصو هوأنّ عدائهم لدولة الكانم لم ينته ورغبتهم في السيطرة على طرق التجارة كان كبيرا، وقد تمكن عبد الجليل هذا من قتل أربع مايات بمساعدة القبائل العربية التي كانت تقيم في فترى وكانم والتي كان سلطان البولالا يمُتُّ إليها بصلة النسب والقربى [10] .

ونتيجة الضغط المستمر من قبائل البولالا على دولة الكانم ورغبتهم في طرد الماغوميين من عاصمتهم جيمي فقد اجتمع السلطان الكانمي الماي عمر بن إدريس (788-794هـ/1386-1391م) بعلماء بلاده والمقربين منه واستشارتهم في مسألة العاصمة والعبور نحو إقليم برنو فأشاروا عليه بذلك ليبدأعهد مملكة برنو، وقد تسرّب الضعف إلى مملكة الكانم نتيجة عوامل كثيرة ، منها الخلافات والإنقسامات التي ظهرت بين أبناء الأسرة الحاكمة ، ومنها ظهور خطر قبائل الصوصو التي كانت تقيم في إقليم برنو وقيامها بمهاجمة عاصمة الدولة ، وكذلك إشتداد خطر البولالا بعد أن تمكنوا من إقامة سلطنة صغيرة لهم في حوض بحيرة فترى [11]

– **عصر سيادة برنو** : بإستئناف الماي عمر بن إدريس الحكم من إقليم برنو بدأ ما يعرف بعصر سيادة برنو والذي إمتد حتى نهاية الدولة سنة 1262هـ/1846م، وقد ترك طرد الماغوميين السيفيين إلى برنو فراغا سياسيا في

---

[1] – الموسوعة الإفريقية ، ج2، ص191 .ينظر: موجز دائرة المعارف الإسلامية ، مرجع سابق ، ص5952

2 – نفسه، ج2 ، ص193 .

3 – نفسه،ج2 ، ص 194 .

4 بشار أكرم جميل الملاح ، ،مرجع سابق ، ص ص 174-175

1 – جلال يحي ، مرجع سابق ، ص 44

[11] – جلال يحي ، مرجع سابق ، ص45.

2–محمد فاضل و إبراهيم كريدية ،مرجع سابق،صص136،137 .

كانم ملأه البولالا الذين أقاموا سلطنة كبيرة ضمت هذا الإقليم بالإضافة إلى إقليم بحيرة فترى والمناطق المحيطة بها في حوض بحيرة التشاد .

وإستمر الصراع بين البولالا والماغوميين في مقرّهم الجديد مدينة "بيرني نجازرجامو" التي اتخذوها عاصمة لهم ، وقد تمكن المايات في برنو من استرداد قواهم منذ النصف الثاني من القرن 15م و وصلت أوجها أثناء القرن 16م[12] ، وقد تبادل الطرفان المتصارعان النصر والهزيمة وخاصة في عهد الماي إديس بن عائش(908-932هـ/1502-1526م) الذي أنزل بأعدائه هزيمة ساحقة واستولى على العاصمة "جيمي" وأقام بها فترة ثمّ عاد إلى "بيرني" ، وتابع ابنه الماي" علي بن إدريس" (952-953هـ/1545-1546م) محاربة البولالا حتى لقب بحارق البولالا، ولم يلبث أن لقي حتفه في إحدى معاركه ضدهم، ولم يقض على خطرهم إلا الماي "إدريس ألوما " (978-1011هـ/1570-1603م) الذي أقام علاقة وطيدة وصداقة ومصاهرة معهم ، فأعاد نفوذ أسرته إلى إقليم كانم ، ووصلت الإمبراطورية في عهده إلى أقصى اتساعها وقوتها وازدهارها .[13]

وقد أقام الماي إدريس ألوما دولته الجديدة على أساس القوة الحربية وأدّى الإصلاح الذي أدخله على الجيش إلى بلوغه مكانة لاتبلغها مكانة أي جيش آخر في بلاد السودان واستقدم فصيلة من حملة البنادق الأتراك تولت تدريب حرسه المكون من الرقيق على استعمال الأسلحة النارية ، وبضل هذه الترتيبات أصبح جيش برنوفريدا في افريقية الزنجية ، ثمّ أحدث تغييرا شاملا في نظام النقل في الجيش بإحلال الإبل والجياد محل البغال والثيران ، كما طوّر الملاحة البحرية فحلت القوارب الكبيرة محل الأشجار المجوفة ، وبذلك إكتسب جيشه قدرة على الحركة كان يفتقر إليها .

وقد خلف الماي إدريس ألوما مايات ضعاف بلغوا خمسة عشر سلطانا على مدى قرنين من الزمن ، وأصيبت البلد بعدد من المجاعات ، كما ظهر خطر القبائل الوثنية في منطقة جومبي تسمى قبائل كوارارافا وقد تمكنت من اجتياح الأقاليم الغربية في برنو وقتلت أحد المايات سنة 1026هـ/1618م، كما حدثت أخرى بين برنو وجيرانها من إمارات الهوسا وخاصة إمارة كانو في النصف الأول من القرن 18م ، غير أن أهم خطر تعرضت له مملكة البرنو هو خطر الفولالين ، وهم قبائل بيضاء انحذرت من الشمال واستقرت في إمارارات الهوسا ، وقامت بقيادة عثمان بن

3-حسن حسن إبراهيم، **إنتشار الإسلام في القارة الإفريقية**، ط2 ،مكتبة النهضة الإفريقية، القاهرة ،1963 ، 130.

فودي بحركة ضخمة لنشر الإسلام بين الوثنيين في هذه الإمارات ، وتمكنت أخيرا من ضمها في دولة واحدة تحت زعامة هذا القائد الذي أعلن قيام دولة الفولاني في بداية القرن 19م [14] .

1 – محمد فاضل و إبراهيم كريدية،المرجع السابق ، ص-ص142-194 .